الباب الأول

ميلاد ولى عهد

لا يمكن أن يقال عنه إنه ما استحق أن يولد
« لويس برتران »

فى صبيحة يوم ٥ سبتمبر سنة ١٦٣٨ دوى فى كل أنحاء فرنسا قصف المدافع المدوية ، وتجاوبت فى أصدائها دقات أجراس الكنائس العالية . واعتقد الناس أن الجيوش الفرنسية قد كسبت إحدى المعارك فى الحرب الناشبة بين فرنسا وأسبانيا ، ولكن إطلاق المدافع وقرع النواقيس استمرا وقتاً طويلا ، فأدرك الناس أنها تنبىء بلا شك عن حادث سعيد ، وسرعان ما تحقق ظنهم ، فإن هذا كان إعلاناً للشعب الفرنسى بأن آن دوتريش ملكة فرنسا وضعت ولياً للعهد فى قصر سان جرمان .

استقبل الفرنسيون هذا النبأ المنتظر بفارغ صبر منذ عهد طويل ، بكل سرور واغتباط فأقاموا صلوات الشكر فى الكنائس والمعابد ، وتوافدوا بجموع غفيرة إلى قصر سان جرمان وهم يهتفون من أعماق قلوبهم للملك والملكة وولى العهد معبرين بذلك عن بالغ فرحهم بالمولود الجديد ، وتبادلوا التهانى ، ورقصوا فى الشوارع والميادين ، ورفعوا الأعلام على دورهم ، وأقيمت الولائم والحفلات فى قصور الأمراء

والنبلاء المنيفة ، وفى أكواخ العمال البسيطة . لقد عم السرور كل مكان فشمل فرنسا من أقصاها إلى أدناها . وظل الشعب فى مرح هاتفا بكل إخلاص للأسرة المالكة أياماً ، حتى لم يعد يفكر إلا فى ولى العهد .

وكان سبب اغتباط الفرنسيين بمولد ولى العهد ، أن لويس الثالث عشر ملك فرنسا كان قد تزوج سنة ١٦١٥ من آن دوتريش شقيقة ملك اسبانيا ، ومرت السنوات سراعا دون أن ينجب وريثاً لعرشه ، فضلا عن أنه أصيب بمرض عضال وساءت حالته الصحية وأصبحت تنذر بالخطر فقلق الشعب على مليكه وعلى مصائره ، وخشى أن يموت الملك دون أن يكون له ولد يتبوأ عرشه من بعده فيتولا شقيقه جاستون دورليان الذى كان مكروهاً من الجميع .

فلا غرو والحالة هذه إذا فاق ابتهاج الشعب كل حد فأقام معالم الأفراح والسرور واحتفى بمولد ولى العهد اروع احتفال وعلق عليه آماله وتمنى أن يكون مولده فاتحة خير للوطن ، فتستتب الأمور وتنتهى الحروب ويتوطد السلام ويعم الرخاء .

اقترن ميلاد ولى العهد بخير عميم للبلاد ، فقد أعلن ريشيليو وزير لويس الثالث عشر وصاحب النفوذ المطلق فى البلاد ، أن الجيوش الفرنسية أحرزت انتصارات باهرة فى الراين وفى الفلاندر ، كما قامت ثورة فى البرتغال وكاتالونيا وكانتا تابعتين لأسبانيا وأعلنتا انضمامهما إلى فرنسا .

سمى ولى العهد باسم « لويس هبة الله » ، وعكفت الأسرة المالكة على تربيته والعناية به فأخذ ينمو ويترعرع ، وبدت عليه دلائل الصحة والنشاط وقوة البنية . وكان يمتاز بعينين كستنائيتين جميلتين ، وأنف دقيق ، وثغر بسام . وبعد سنتين من مولده وضعت الملكة مولوداً جديداً منح اسم فيليب دوق أنجو .

ورحـــل لويس الثالث عشر مع وزيره ريشيليو إلى الحدود الأسبانية لتفقد القوات الفرنسية التي تحارب هناك ، بالرغم من ازدياد التهديد باندلاع نيران الحرب الأهليـة فى فرنسا ، وبقيت الملكة مع ولديها فى سان جرمان بعد أن اتخذت كل الاحتياطات الكفيلة بالمحافظة عليهم .

عهد بتربية الأميرين إلى سيدة عظيمة اسمها مدام دى لانزاك ، وبحراستهما إلى الكابتن دى مونتينى الضابط فى الحرس الملكى ولم تكن المربية تسمح بأى حال لدوق دورليان « عمهما » بالاقتراب من ولى العهد إذا كان معه ثلاثة رجال فأكثر ، أما إذا كان بمفرده فيمكنه أن يراه بشرط أن يكون ضابط الحرس حاضرا معه لا يفارقه لحظة واحدة طيلة الزيارة مهما كانت الدوافع والأسباب .

وكانت مهمة الكابتن دى مونتينى هذا شاقة جدا ، تتطلب منتهى اليقظة والحذر ، فقد أعطاه الملك قبل رحيله نصف جنيه من الذهب وأوصاه بألا يسمح لأى شخص برؤية الطفلين حتى ولو قدم له أمراً

ملكياً بتوقيع الملك نفسه يبيح له الدخول فى حجرة الأميرين لمشاهدتهما ، إلا إذا كان هذا الأمر مرفقاً به النصف الثانى من الجنيه الذهبى الذى كان لويس الثالث عشر يحتفظ به لهذا الغرض وذلك لضمان سلامة ولديه ، والتأكد من بقائهما فى مأمن من الوقوع فى يد أعدائه أو فى يد الطامعين فى العرش ، الذين قد ينتهزون فرصة غياب الملك فيعملون على التخلص من الطفلين ليخلو لهم الطريق .

ولم تكن هذه الاحتياطات الدقيقة عن مجرد وهم أو شك ، وإنما كان لها ما يبررها ، فقد حدث أثناء رحلة قامت بها الاسرة المالكة إلى الجنوب أن اكتشفت مؤامرة لاغتيال الطفلين كان قد اشترك فى تدبيرها أحد كبار رؤساء الأساقفة ، ودى تو مستشار الدولة ، وأثبت التحقيق اشتراك جاستون دورليان شقيق الملك فيها ، وحكم على الأسقف ومستشار الدولة بالإعدام ونفذ فيهما الحكم فى مدينة ليون ، كما نفى جاستون دورليان من البلاد . ورجعت الأسرة المالكة وريشيليو إلى باريس .

مرض ريشيليو فلزم قصره العظيم القريب من التويلرى ، ولم يخرج منه إلا محمولا على الأعناق ليشيع إلى مثواه الأخير ، وخلف لمولاه لويس الثالث عشر هذا القصر المنيف ، كما ترك له رجلا نابها كان موضع ثقته التامه وهو الكردينال « مازاران » الذى طالما حدث الملك عن مواهبه وتفانيه فى العمل وإخلاصه للبلاد ، وأكد له قبيل وفاته أنه هو وحده الجدير بأن يخلفه فى منصب الوزارة ،

كما أستطاع ريشيليو أن يوجد لفرنسا مقاما عظيما بين سائر الدول الأوروبية ، وأن يوطد الأمن فى ربوع البلاد . وأن ينظم الحالة المالية ويترك فى خزائن الدولة أموالا طائلة .

واتبع الملك مشورة ريشيليو ونفذ رغبته بأن عين الكردينال « مازاران » محله ، ومرض الملك فلزم فراشه أيضاً وأشتدت عليه وطأة المرض . ولما أدرك دنو الأجل المحتوم كتب وصيته ونص فيها على أن تكون آن دوتريش وصية على العرش إلى أن يبلغ الملك الجديد سن الرشد وأن يساعدها فى أعمال الوصاية مجلس مؤلف من دوق دورليان الذى نفى من البلاط لاشتراكه فى مؤامرة اغتيال ولى العهد وشقيقه ، وامبركونديه والكردينال « مازاران » وثلاثة وزراء ؛ وأرسل هذه الوثيقة إلى البرلمان لتنفيذها فى الوقت المناسب .

وفى ٢١ أبريل سنة ١٦٤٣ احتفل بتعميد ولى العهد فى كنيسة سان جرمان ، وبعد الاحتفال أدخل إلى غرفة أبيه المريض فسأله قائلا : ما اسمك الآن ،

أجاب الأمير على الفور قائلا : لويس الرابع عشر .

فربت أبوه على كتفه وقال له متلطفا : لما يحن الوقت بعد .

ويبدو فى هذه المحادثة القصيرة أن ولى العهد كأنه كان يتكلم بالهام ، ذلك لأن المرض أشتد فجأة على الملك وأخذت قواه تنهار بسرعة ودلت الأحوال على أنه يسير بخطى سريعة نحو النهاية المحتومة وفى ١٠ مايو رأى حلماً وهو أن دوق دانجيان الذى أصبح فيما بعد

دوق كونديه العظيم قد انتصر انتصاراً رائعاً حاسماً ، وقد تحقق هذا الحلم فعلا . فإنه فى ١٩ مايو انتصر هذا القائد الشاب فى « روكروا » ولكن الملك لم يعش ليرى تحقيق نبوءته لأنه فى ١٤ مايو سنة ١٦٤٣ دوت فى سان جرمان هذه الصيحات التقليدية :

مات الملك . . . يحيا الملك .

وفى نفس اليوم أعلن تنصيب « لويس هبة الله » ملكا لفرنسا باسم لويس الرابع عشر .

* * *

وفى اليوم السابق لانتصار دوق دانجيان فى موقعة روكروا . ذهبت ملكة فرنسا مع ابنها إلى قصر اللوفر ليؤدى الملك الجديد لويس الرابع عشر اليمين الدستورية . وكان القصر قد أعد أعظم إعداد لهذه المناسبة السعيدة ، فاجتمع فى القاعة الكبرى أعضاء البرلمان وهم يرتدون ملابسهم الحمراء التقليدية . وحضر الأمراء والدوقات والنبلاء وكبار رجال الدين وجلسوا فى الأماكن المخصصة لهم . وبعد أن اتخذ كل المدعوين أماكنهم ، حمل الدوق «دى شفرين» الملك الطفل لويس الرابع عشر وسار به يتقدمه ضباط الحرس من الأشراف ، ودخل تحوطه العظمة والجلال وأجلس الطفل على مقعد خاص بجانب والدته ووقفت خلفه مربيته . وساد الجلسة سكون رهيب عندما فضت وصية الملك الراحل وتليت بنودها على الحاضرين وردد لويس الرابع عشر كلمات اليمين التقليدية ، واعتمدت الوصية وأصبحت نافذة المفعول . وبذلك أعطيت الوصاية إلى آن

دوتريش بمساعدة الهيئة التى سبق ذكرها ، وبقى مازاران وزيراً .

لم تعرف البلاد فى الشهور الأولى من عهد الوصاية إلا الانتصارات فى الخارج والرخاء فى الداخل : فقد خفضت الضرائب ، وظهر فريق من المتمردين فى البلاط فكانوا يغالون كل ما يطلبون ، وكان الشعب راضيا تمام الرضى حتى يمكن أن يقال إن اللغة الفرنسية انحصرت فى هذه الكلمات : « إن الملكة طيبة حقا » .

وانتقلت آن دوتريش والملك وشقيقه وما زاران والحاشية إلى قصر الكردينال ريشيليو الذى أطلق عليه اسم القصر الملكى ، وفيه شعرت الملكة بمنتهى الراحة والهدوء . وكان الملك وشقيقه يمضيان الوقت فى الحديقة الفسيحة الجميلة ، فقد كان يحب التمرينات الرياضية العنيفة والهواء الطلق إلا أنه كان مع ذلك يميل إلى الجد والرصانة ، فى حين كان شقيقه لطيفا رقيقا يحب اللعب ، حتى كان دائما موضع الملاطفة والتدليل .

وأنشئت فى حديقة القصر قلعة صغيرة واختير بعض الأطفال من سن الملك لمرافقته فى اللعب والعمل فيها تحت إشراف مدام « دى لاسال » وصيفة الملكة الخاصة التى كانت ترتدى لهذه المناسبة زيا خاصا وتضع على رأسها قبعة عالية مزينة بالريش الأسود وتمسك سيفا . وكان لويس يجد سروراً عظيما فى التمرينات الحربية ولو أنها سببت له أحيانا بعض الحوادث الأليمة ، فقد وقع ذات يوم فى جدول ماء

حتى كاد يغرق ، وكثيراً ما كانت ترتفع درجة حرارته فيذهب محموما إلى فراشه .

على أن هذه الألعاب لم تمنعه من العمل بكل جد ونشاط فى استيعاب دروسه وواجباته ، فقد اختير لتثقيفه وتعليمه العالم الأب دى بومون ، والأديب «لاموت لوڤاير» كما وقع الاختيار على المركيز دى فيليروى لتكون مربيته الخاصة .

وتدهورت الأحوال المالية فى البلاد ، ونفذ الاحتياطى العام — الذى أدخره ريشيليو — فى سد مطالب الحروب المستمرة . فزيدت الضرائب ولكن لم يكن يجبى منها إلا جزء ضئيل منها وبكل مشقة وصعوبة وتقرر إزاء ذلك منح تخفيض كبير للممولين الذين يسددون على دفعة واحدة الضرائب المستحقة عليهم عن سنوات مقبلة . فلم تكن الحياة فى بلاط فرنسا فى ذلك الوقت على أتم الأبهة والرفاهية ، فقد ارتبكت أموره ، وأصبح فى حالة عسر مالى شديد إلى حد أن الأسرة المالكة لم تكن تستطيع أن تتناول وجبات الطعام اليومية كاملة ، فكانت تكتفى فى غذائها على الفاصوليا والخبز المغموس فى اللبن ولم يكن يوجد فى كثير من الأحيان من هذا الطعام التافه ما يكفى للوصيفات ، وكانت أغطية فراش الملك مهلهلة ، كما كانت مفروشات العربات الملكية كثيرة الثقوب والرتوق . فكانت عظمة يكتنفها البؤس والفاقة .

وكان يشرف على طفولة الملك بكل نزاهة وإخلاص الرجل الوفى

الكردينال مازاران . كان مازاران إيطاليا فلم يستطع أن يتقن اللهجة الفرنسية الصحيحة وقد استطاع أن ينطق بكل زهو وهو على فراش الموت بهذه الكلمات الحقيقية التى برهنت عليها أعماله : كان قلبى فرنسيا ولو لم تكن لغتى فرنسية » .

كان مازاران يتفانى فى الإخلاص والوفاء للويس الرابع عشر منذ طفولته ؛ ولم ينس هذا الملك خدمات وزيره وإخلاصه له حتى خرْ لحظات حياته ، وقد أخذ عنه حبه للفنون الجميلة وتقديره لكل شىء جميل ، واهتمامه بالأعمال الفنية ، والروح الكريمة السمحة ، وحب العظمة ، وأخذ هذا التأثير يتجلى بأروع صوره فى ميول واتجاهات الملك بعد أن انتهت أيام الفاقة والعسر المالى والحروب الأهلية التى اكتوى بنارها فى طفولته .

وكانت الملكة ومازاران يبذلان كل مافى وسعهما لمعالجة النظام المالى والعمل على انعاش الحالة المالية والاقتصادية فى البلاد ، فقد اتضح لهما بعد طول بحث ومناقشة أن سكان كثير من الجهات يرفضون دفع أية ضريبة جديدة ، وأنه كثيرا ماتنشأ مشاحنات شديدة بين الممولين وبين موظفى الدولة المختصين بجباية الضرائب ، وأن مدنا عديدة ترفض أى تجديد فى النظم المالية ، وأن البرلمان كان محور المعارضة فى فرض أية ضريبة جديدة أو اقتراح زيادة الضرائب الموضوعة .

كان يوجد فى فرنسا فى ذلك الوقت برلمانات متعددة موزعة فى

المدن والمقاطعات الكبيرة ، وهى بمثابة هيئـــة قضائية موحدة الاختصاص . وكان برلمان باريس أقدم وأعظم هيئة قضائية فى فرنسا وهو يشبه محاكم الاستئناف العليا فى الوقت الحالى ، وكان الأعضاء يملكون وظائفهم لأنهم يشترونها بالمال ويورثونها لأبنائهم ويتصرفون فيها بكل حرية كما يتصرفون فى أملاكهم وأموالهم الخاصة ، فلذلك لم يكن الملك لايستطيع أن يفصل أى عضو مما لم يجعل له أى نفوذ على أعضاء البرلمان ، فكانت القرارات التى يصدرها البرلمان فى باريس لا تقبل النقض أو التعديل ، وفى هذا ضمان تام للاستقلال القضائى .

وكانت التقاليد تقضى بأن يلجأ الملك إلى البرلمان لإقرار القوانين والأوامر والمراسيم التى يصدرها لتسجيلها واعتمادها لكى تصبح نافذة المفعول ، وكثيرا ما كان البرلمان يرفض القوانين والمراسيم التى يقدمها له الملك وفى هـــذه الحالة يذهب جميع الأعضاء إلى الملك ويشرحون له أسباب ومبررات الرفض ويقنعونه بوجهة نظرهم ويوجهون اليه مايشبه التحذير أو الانذار .

وكان أعضاء البرلمان يعارضون بكل قوة أى مشروع قانون بفرض ضريبة جديدة أو رفع قيمة ضريبة مقرره ، كما دأبوا على معارضة كل قانون أو مرسوم يقدم اليهم لا لشىء إلا حبا فى المعارضة وإمعانا وقد أدت معارضة البرلمان لمشروع الضرائب الذى أعدته الملكة مع مازاران لتحسين مالية الحكومة إلى حرب أهلية طويلة (سيجىء الكلام عنها فى الباب التالى) .

وبالرغم من ذلك العسر المالى كانت الحرب دائرة بين الجيوش الفرنسية والأسبانية وقد استطاع دوق دانجيان الذى أصبح أمير كوندبه عقب وفاة أبيه ، أن يوقع بالأسبان هزيمة ساحقة فى « لانس » فى ٢٦ أغسطس ١٦٤٨ أى قبل أن يتم لويس الرابع عشر السنة العاشرة من عمره بثمانية عشر يوما .

الباب الثانى

فترة الحرب الأهلية

دقت أجراس الكنائس دقات الفرح عقب صلاة يوم الأحد إعلانا للشعب ، الذى أخذ ينتشر فى الشوارع والطرقات ، بانتصار « لانس » الحاسم .

قابل الشعب هذا النبأ السار بكل حماس وابتهاج لأنه سيضع حدا للحروب ويحقق السلام المنشود الذى طال انتظاره .

وحضرت الأسرة المالكة صلاة الشكر الخاصة التى أقيمت فى كاتدرائية باريس الكبرى ودعى اليها الأمراء ورجال الدولة وأعضاء البرلمان . وبعد انتهائها ، توجهت الملكة والملك والحاشية إلى فناء الكاتدرائية حيث وقف أعضاء البرلمان بملابسهم الحمراء التقليدية برئاسة الحكيم ماتيو موليه الذى كان يسميه رجال الأسواق « اللحية الكبيرة » ، وأدوا للملك فروض الإجلال والاحترام ، ومن ثم استقلت الأسرة المالكة العربات للعودة إلى القصر الملكى وسار الموكب يحيط به الحرس فى شوارع المدينة الضيقة ، وكان الشعب على طول الطريق يهتف للملك وللملكة هتافات مدوية تشق عنان السماء .

وفى بعض الجهات هتف الشعب لمازاران ، وفى البعض الآخر هتف ضده فقد كانت الجماهير تهتف للملك والملكة وجميع الأمراء ما عدا مازاران ، كما كان ينادى بشدة فى كل مكان بسقوط الضرائب .

سمعت الملكة نداء الشعب الحماسى بسقوط الضرائب ، فلما وصلت إلى القصر أمرت باستدعاء ثلاثة من أعضاء البرلمان الذين تزعموا المعارضة فيما يختص بالضرائب ، مع أنه كان لابد من جبايتها لبقاء القوات الضرورية للمحافظة على السلام ، وهم : بوتيبية دى بلافنيل وشارتون والمستشار بروسيل ، وبعد مناقشة قصيرة أمرت بالقاء القبض عليهم وسجنهم .

كان الأمر بالقاء القبض على بعض الأشخاص أو الزعماء وسجنهم ينفذ دون أن يثير انتباه الناس أو معارضة أحد ، ولكن فى هذه لمرة ، أخذ أعضاء البرلمان بالرغم من كراهية الشعب لهم ، يدافعون عن حقوق الشعب ويطلبون حمايته من استغلال الأسرة المالكة ، ويحثونه على العمل على تحقيق هذه المطالب العادلة ، فبذلك ظهروا بمظهر زعماء الشعب الساعين إلى تحقيق رغباته وأمانيه ، فانضم إليهم كثير من الأفراد وأصبحوا يحظون بحب الشعب وثقته

عندما قبض على « بروسيل » أخذت خادمته العجوز تستغيث من نافذة مسكنه الكائن فى قلب باريس ، وذهل الناس الذين كانوا يتنزهون ويمرحون فى يوم راحتهم الأسبوعية ، فلما علموا بالخبر أظهروا شديد سخطهم واستغل أعضاء البرلمان هذه الفرصة فعملوا على اثارتهم ، واستجابوا للتحريض فثاروا وساروا فى مظاهرات عدائيـــة

فى ذلك الوقت كانت توجد فى شوارع باريس سلاسل قوية تمد فى الليل للحيلولة دون هروب اللصوص ، فاستعملت هذه السلاسل لمنع سير الدوريات التى وجهها القصر الملكى للمحافظة على الأمن ، وأقيمت المتاريس وتسلح رجال المليشيا الخاصة بطبقة البورجوازى . كما تسلح الرجال والشبان بالعصى والسيوف القديمة التى عثروا عليها فى المخازن والمنازل .

وقام « بول دى جوندبه دى ريتز » مساعد عمه كبير أساقفة باريس على رأس الحركة حيث وجد فيها فرصة سانحة للقيام بدور ثورى كبير إظهارا لخصومته وإرضاء لميوله فى الدس والتآمر ومثل دور الوسيط بين البلاط والبرلمان وبالطبع عمل على إثارة النفوس وإلهاب الخواطر وإفساد الأمور وتسميم الأفكار وتفاقم الحالة .

وفى اليوم التالى توجه رئيس البرلمان ماتيو موليه ، ومعه رجاله وحاشيته بموكب حافل إلى القصر الملكى للمطالبة بالإفراج عن الأعضاء الثلاثة المقبوض عليهم وفتحت المتاريس الكبيرة للسماح له بالسير . فوصل إلى القصر الملكى وهناك لم يحصل إلا على وعود غامضة فعاد أدراجه بموكبه الرائع ، ولكن عند عودته أهين وأسىء إليه من الثوار ، واستمر الشعب فى سياسته العدائية وحمل السلاح .

وأخيرا أذعنت الملكة فأمرت باستدعاء بروسيل من قصر سان جرمان حيث كان مسجوناً ، فاستقبلة الشعب استقبالا حماسيا منقطع النظير لم يكن يتوقعه إطلاقا فاعتقد أنه أصبح بين غمضة عين وانتباهتها

رجلا عظيما وزعيما خطيرا وسيداً مهابا بين قومه ودخل القصر الملكى بين هتاف لا مثيل له وعلى دق الأجراس وإطلاق البنادق .

كان المنتظر أن ينتهى هذا الشغب عقب الإفراج عن بروسيل . ولكن هذا الإفراج مع أنه أدى إلى السرور العام إلا أنه لم يؤد إلى القضاء على الفتنة وتوطيد الأمن . ذلك لأن « جوندية » وصديقه « دوق بوفور » الذى كان يسمى ملك الأسواق استمرا فى إثارة الشعب خفية . كما أن البرلمان اغتر بانتصاره فاصر على التمسك بسياسته فى معارضة مشروعات الضرائب التى كانت الحاجة ماسة اليها أكثر من أى وقت آخر لتدبير شؤون الحملة الحربية المتجهة إلى اسبانيا والتى ستكون بلا شك آخر حملة قبل إقرار السلام النهائى .

كان من نتيجة ذلك أن توترت الحالة وأصبحت باريس غير آمنة فى كل لحظة كان يتوقع قيام شغب وقلاقل وفتن بسبب حادث تافه ، وكان يزيد هذه الحالة اضطرابا ، الخطب المثيرة المحرضة على الثورة والتدمير التى يلقيها أعضاء البرلمان . والمواعظ الحاضة على الحقد والكراهية التى يلقيها رجال الدين المؤيدون لجوندية مساعد رئيس الأساقفة من منابر الكنائس ودور العبادة ، ودعاية بعض الأمراء الساخطين ، وغرور السيدات المتلهفات على القيام بدور سياسى حبا فى الظهور .

ولم يكن لدى القصر الملكى قوات كافية للدفاع عنه ، فإن فرق المليشيا انضمت إلى البرلمان ، وكان الجيش على الحدود الأسبانية فا

يبق لحماية الملك إلا عدد صغير من الحرس الفرنسى والسويسرى لا يستطيع الدفاع والمقاومة فى حالة قيام ثورة عامة أو هجوم الثوار على القصر الملكى الذى لم تكن له أسوار عالية لحمايته من المغيرين ولسهولة الوصول اليه من حدائقه .

لذلك كله ، كانت الملكة تتوقع هجوما عاما من الثوار ، فقررت أن تنتقل مع ابنها الملك والحاشية إلى مكان أمين ، فانتهزت فرصة ليلة عيد الملوك المجوس (أى عيد الاحتفال بعماد المسيح) فى ٦ يناير سنة ١٦٤٧ . حيث كان الباريسيون لا يفكرون إلا فى اللهو والمرح والشراب والطعام حتى نسوا السياسة والثورة والضرائب ، ورأت الانتقال إلى المكان الذى وقع عليه الاختيار .

فى الساعة الثالثة صباحا اصطفت العربات داخل القصر الملكى فاستقلتها الملكة والملك ودوق أنجو والجراند مدموازيل (ابنة جاستون دورليان) والكردينال مازاران والحاشية ، وخرجت مسرعة إلى الطريق العام .

كان الجنود الذين يتولون حراسة أبواب « سانت أونوريه » أقرب الأبواب إلى القصر الملكى لم يتلقوا أى أمر من الرؤساء فتركوا العربات تمر دون أن يهتموا بمعرفة راكبها ، واتجهت إلى قصر سان جرمان وكانت الأسرة المالكة قد هجرته بانتقالها إلى قصر ريشيليو الذى أصبح القصر الملكى .

لم يكن قصر سان جرمان المهجور منذ وقت طويل على أى

استعداد لإقامة الأسرة المالكة ، فقد نقل معظم أثاثه لتجميل وإعداد بعض حجرات قصر اللوفر كما رفعت ألواح زجاج النوافذ ونقلت إلى باريس ، وكان الزجاج غاليا جداً فى ذلك الوقت . كما كانت الأسرة المالكة فى غاية الفقر إلى حد أن الملكة كثيراً ما اضطرت إلى رهن مجوهراتها وحليها الخاصة للحصول على نقود ضرورية .

كان البرد فظيعا فى هذا القصر ، حتى كان المرء يرتعد من شدة وطأته فى الحجرات الكبيرة التى تتلاطم فيها تيارات الهواء لخلو نوافذها من الزجاج ولخلو مدافئها من الوقود . وبعد عناء شديد وبحث طويل عثر على سرير واحد للملكة والملك وشقيقه ، وضعت عليه أغطية بالية ، وكان هذا مألوفا حقا لدى الأسرة المالكة لأن أغطية أسرة القصر الملكى لم تكن أحسن حالا ، وقنع الأمراء وأفراد الحاشية اليوم على مراتب من القش اشتريت بأسعار باهظة .

ولما علم الباريسيون بالتجاء الأسرة المالكة وأفراد الحاشية إلى سان جرمان ، رفضوا السماح بمرور العربات الخاصة ، التى كانت تحمل اليهم الأثاث والأمتعة والملابس ، ولم يكن لديهم إلا الملابس التى خرجوا بها من باريس ، ولذلك كان كل واحد منهم يغسل أثناء الليل ملابس النهار ويجففها إلى أن استطاعوا شراء الأثاث الضرورى والملابس اللازمة .

فى هذا الجو القاتم ، وتحت الرقابة الشديدة التى كان يتولاها لابورت ، خادم الملك الخاص ، وتحت وطأة البرد القارص ،

وفى وسط تيارات الهواء الثلجية ، كان لويس الرابع عشر يؤدى واجباته ويستذكر دروسه ، وجلس يوما ما أمام مكتبه البسيط ليكتب بأنامله المتورمة من البرد موضوعا إنشائيا أعطاه له أستاذه تحت هذا العنوان : « يفعل الملوك كل مايحلو لهم » .

كيف يعالج هذا الموضوع وهو الذى اضطر أن يهرب من غرفته أثناء الليل ، ولا يعرف متى يعود اليها ، وهو الذى لايسمع حوله إلا كلمات الخوف والقلق يتهامس بها المحيطون به فى الأروقة والحجرات وهو الذى لايقع نظره على أمه إلا ويراها باكية حزينة .

إنه كان ملكا ولذلك لم يشك ولم يبك عندما كانت أصابعه المتورمه تؤلمه ألما شديدا ، لماذا يتحدث والحالة هذه عن هذا الموضوع الساخر : « يفعل الملوك كل ما يحلولهم » ، لقد فهم أمورا كثيرة وهو لايزال طفلا .

وكان الفريق الصغير من أصدقائه فى اللعب فى باريس قد تشتت شمله فلم يجد أمامه سوى ابنة عمه (الجراند دموازيل)، ومع أنها كانت فتاة فى الحادية والعشرين وهو فى العاشرة فقط إلا أنها كانت تتسلى معه وتعلمه ألعاب الورق وتناديه بقولها : زوجى الصغير ، لم يكن ذلك مجرد دعابة بل كان تعبيرا عن رغبة مكبوته أو حلم تتمنى تحقيقه وهو أن تصبح يوما ما ملكة فرنسا ، إلا أن الملك كان صغير السن ، لم تنضج عواطفه بعد ، لكى يفهم هذه المداعبات العاطفية والتعبيرات الوجدانية ، وإنما كان يجد فى اللعب مع ابنة عمه ما يلهيه عن التفكير فى أصابعه المتورمة ، وفى البرد القارص الذى ينفذ من النوافذ

الخالية من الزجاج ، وفى حياة البؤس التى يحياها وفى مظاهر الضنك التى تكتنفه .

* * *

دهشت باريس من رحيل الأسرة المالكة ، وتطورت الدهشة إلى قلق على مصيرها ، أما البرلمان فلم يعبأ بشىء ، واستولى باسم الملك الذى يحاربه على حكومة المدينة ، وكان أول مااهتم به فى هذا الكفاح الناشىء عن رفض تطبيق الضرائب الجديدة ، هو زيادة الضرائب .

وعملت حكومة البرلمان هذه على زيادة قوات المليشيا ، والاستعانة بكبار الأمراء والنبلاء الساخطين المتمردين ، لقيادة هذا الجيش ، وكان منهم أمير « كونتى » الشقيق الأوسط « لكونديه العظيم » ، وكان هذا الأخير قد عاد من الحرب ووضع نفسه تحت تصرف الملك والبلاط ، وكان معه خمسة عشر ألف جندى نظامى ، وإنما لم يكن فى وسعه أن يحسن التصرف والعمل كما ينبغى ، فيضرب حصاراً قوياً حول مدينة كبيرة تضم تسعمائة ألف نسمة ، فرأى بثاقب فكره أن يعمل أولا على عرقلة تموين المدينة بطريقة فنية بحيث لاتؤدى إلى إحداث مجاعة .

وباتخاذ كونديه هذه الخطة والشروع فى تنفيذها نشبت الحرب الأهلية التى أطلق عليها معاصروها إسم « حرب الفروند » (نسبة إلى لعبة تشبه المجداف) وعلى المشتركين فيها اسم « لاعبى الفروند » (١٦٤٨ — ١٦٤٩) ، ومن ذلك الوقت استعملت هذه العبارة فى اللغة

الفرنسية للتعبير عن الشخص الكثير الانتقاد لكل شيء انتقادا غريباً لا يستند إلى منطق أو رأى معقول .

ثورة الحرب الأهلية (الفروند)

نجح البرلمان فى إثارة حماس الباريسيين ضد الأسرة المالكة ، وأخذ يعد مواقع الدفاع والهجوم ، فوزع قوات المليشيا الجديدة من فرسان ومشاة على كل أبواب المدينة وميادينها ، ثم قامت مناوشات بين قوانه وقوات كوندية النظامية .

ولما كان «جوندى دى ريتز» يتوقع أن يخلف عمه فى منصب رئيس أساقفة باريس ، لأنه كان يحمل لقب رئيس أساقفة «كورنت» ، فقد ألف على حسابه الخاص فرقة من المحاربين مكونة من خمسة بلوكات بيادة أطلق عليها اسم فرقة كورنت ، وكان يسير بكل زهو وفخار على رأس هذه الفرقة فى الشوارع ، وقد خلع ملابس الكهنوت وارتدى الملابس العلمانية (المدنية) وتسلح بطبنجة وخنجر ولم تستطع هذه الفرقة أن تتعدى ضاحية «عور لارين» (من ضواحى باريس الصغيرة) .

وعقد «البورجوا» وأصحاب الأعمال والمتاجر اجتماعات عديدة فى مقاهيهم وأنديتهم قرروا فيها الانضمام إلى الثوار . فتسلحوا بالبنادق والطبنجات وحملوا الدروع ووضعوا الخوذات على رؤوسهم واستعدوا للقتال فى المواقع التى عينت لهم فى ضاحيتى ڤانسين وشارنتون ولكنهم عندما اصطدموا بالقوات النظامية التى يقودها كونديه ، هزموا هزيمة شنيعة فولوا الأدبار وتشتت شملهم ، كما هزمت قوات المليشيا هزائم مشينة وبقى لواء النصر معقودا دائما لجنود كونديه بالرغم من قلة عددهم

لما توالت هذه الهزائم ضج البرلمان من مطالب قواد قوات المليشيا التابعة له مع ثبوت ضعفهم وعجزهم فى القتال وهزائمهم الظاهرة كما أن الشعب لم ير أية فائدة من دفع ضرائب ومبالغ طائلة للاستمرار فى الثورة ، تزيد كثيرا عن الضرائب التى طلبها مجلس الوصاية والتى

أدت المعارضة فيها إلى هذه الحالة الأليمة . كما أنه توقع أن يطالب بدفعها مرة بل مرات أخرى . ولهذا جاهر بالشكوى وإظهار الندم .

وفى هذه الفترة قدم سفير أسبانيا للمفاوضة ، فاستقبله أعضاء البرلمان والقواد وبدأت المفاوضات فى الحال ، وفى أثناء ذلك أعلن البطل تورين ، انضمامه إلى الثوار وأنه ينوب عنهم فى المفاوضة . واغتبط « جوندى دى ريتز » من هذه المفاجأة بالرغم من هزائمه المتوالية المنكرة . واعتبر تصريح تورين انتصاراً لحركة الفروند .

لم تسفر المفاوضات عن نتائج معينة كما أن انتصار « حركة الفروند لم يستمر طويلا ، لأن أعضاء البرلمان رأوا هزائم قواتهم فى كل ميدان فتأكدوا من الفشل المحتوم ، ولم يروا أية فائدة من الاستمرار فى العصيان والتمرد ، واقتنعوا أنهم بعملهم هذا يرتكبون جريمة الخيانة العظمى للوطن . وإن هذه التهمة ثابتة عليهم بلا شك ، كما أن جنود تورين رفضوا إطاعته وتمردوا وأبوا أن يتبعوه ، كما كانت معاهدة وستفاليا قد عقدت وهى تحمل فى بنودها امتيازات عظيمة لفرنسا التى لم يعد يبق امامها من أعداء سوى أسبانيا .

كان من نتيجة هذه الظروف والعوامل أن أصدر مازيو موليه رئيس البرلمان فى ٣٠ مارس ١٦٤٦ بيانا أملاه بعد النظر وقوة الرأى . استعرض فيه الحالة وختمه بوجوب عقد الصلح مع الأسرة المالكة .

وقد تم هذا الصلح فى « رويل » وبمقتضاه عادت الأسرة المالكة إلى باريس فى ١٨ أغسطس سنة ١٦٤٩

استقبل الشعب الملك والملكة الوصية استقبالا حماسيا حارا ، ودعت بلدية باريس الأسرة المالكة والحاشية إلى وليمة كبيرة ، دعت إليها أيضا مازاران . وفى أثناء الحفلة تصافت القلوب فاغتبط الجميع وعم السرور والمرح ، وحظى مازاران باحترام الأعضاء وتكريمهم ، وبذلك هدأت النفوس وصفا الجو .

* * *

رحلت الفرق الملكية لمحاربة الأسبان الذين استغلوا فرصة الفوضى والاضطراب فتقدموا إلى « بيكارديا » ، وانضم تورين جهرا إلى صفوف الأعداء ، ولم يستأنف « كوندية » مهام القيادة فقد شجر خلاف بينه وبين مازاران ، فانشأ لمعارضته حزبا جديدا باسم « السادة الضعفاء » وقبض على كونديه ولكن أفرج عنه بعد قليل .

لم تقض حرب « الفروند » على العقبات المالية ، فاستأنف البرلمان معارضته للضرائب بكل عناد ، فعلقت على الجدران نشرات ضد الكردينال مازاران .

وفى ذلك الوقت ثارت مقاطعات كثيرة منها مقاطعة جويين وفيها مدينة بوردو العظيمة ، فرحل اليها الملك مع جنوده لإخماد الثورة وقامت حرب أهلية جديدة . ومما يجدر ذكره أن لويس الرابع عشر

حمل السلاح لأول مرة فى حصار بيلجارد وهو فى سن الثانية عشرة ، وأظهر شجاعة فائقة . واستمرت الحرب شهورا بين أخذ ورد ، فكانت المدن تسقط ثم تسترد . وبعد انتهاء كل حملة كان البلاط يعود إلى باريس حيث كان يشعر بأن الخطر يدنو رويدا رويدا

وهذه الحرب الأهلية الثانية التى تسمى « فروند الأمراء » كانت تدل ظواهرها على أنها ستكون أكثر شدة وخطورة من سابقتها التى سميت « الفروند البرلمانية » .

وسعى مازاران إلى تهدئة الخواطر ففرض على نفسه النفى الاختيارى واختار لمنفاه مدينة « بروهل » على الراين بالقرب من كولونيا وإنما كان هذا النفى بلا جدوى ، فقد أصبح كونديه ثائرا علنيا وانضم إلى الأسبان ، وهكذا اتسعت الحرب الأهلية الثانية .

وفى إحدى ليالى شهر فبراير سنة ١٦٥١ هجم الغوغاء على القصر الملكى وتغلبوا على الحراس وحطموا الأبواب واقتحموا القصر ، وجاء فى أثرهم جنود المليشيا ليتأكدوا من وجود الملك لأنه أشيع أن الملكة تريد تهريبه إلى مكان أمين ، فكان لزاما على آن دوتريش أن تسمح لهؤلاء الجنود المسلحين بالدخول فى غرفة الملك الخاصة وكان يغط فى نومه فاستيقظ على الجلبة والضجة ، ولما رأى مايجرى حوله أبدى شجاعة وحكمة وحسن تصرف جدير بكل إعجاب ، لاسيما وأنه كان فى الثالثة عشرة من عمره .

ورأت الملكة بين زعماء الغوغاء رجلا يدعى دى لوريه ، كان

يعمل خادما لكبير طهاة القصر الملكى ، فاستدعته ولاطفته وأكرمته وأجلسته لأنها لمحت فى عينيه نية الشر والأذى فعمدت إلى هذه الوسيلة لكى يعدل عن نياته ، وبالفعل نسى هذا الرجل ماجاء من أجله وساعد بكل قواه على إخماد الثورة وتهدئة المتذمرين والمتمردين ، وإنما فرضت رقابة شديدة على الملكة فأصبحت سجينة فى القصر الملكى ، ولم يفكر الثوار فى مهاجمة القصر مرة أخرى .

وفى ٥ سبتمبر سنة ١٦٥١ ، أعلن أن الملك بلغ سن الرشد ، وبعد يومين توجه فى موكب عظيم إلى البرلمان حيث قدم له الأمراء والأعضاء خضوعهم وولاءهم ، وفى الذهاب والعودة كان حرسه موضع إعجاب وهتاف الباريسيين وعمت الأفراح كل مكان ، وكان النبيذ يجرى مجرى الماء فى النافورات العامة .

وبعد أيام رحل الملك والحاشية إلى «بيرى» لإخماد ثورة المقاطعات التى ضربها كونديه وأعوانه .

وفى نفس الوقت هزم تورين على يد الماريشال هوكنكور ، فجاء إلى باريس يعلن خضوعه واستسلامه للملك ، وفى الفترة ذاتها أنشأ مازاران على نفقته الخاصة جيشا صغيرا أرسله إلى الملكة .

وأما الحالة العامة وكانت تتلخص فى أن باريس بقيت محايدة وأن أفراد طبقة « البورجوازى » وضعوا شارة الحرب لا عن إيمان بعدالتها أو اقتناع بفكرتها وإنما عن خوف ، وظلوا فى قرارة نفوسهم على أتم ولاء للملك ، كما أنهم لم يكنوا أى حب أو تقدير «لكونديه» .

الذى استنجد بالأسبان ، وأن البرلمان مع زهوه بقيامه بدور سياسى جديد كان أقل الهيئات اطمئنانا وثقة . وأن دوق أورليان (عم الملك) كان بالاسم سيد الموقف وعلى ذلك كان يدعى المرض عند مايتطلب الأمر اتخاذ قرار حاسم فى مسألة ما .

* * *

استمرت الحرب بين جيش الملك وجيش الأمراء ، ولا داعى هنا لذكر تفصيلاتها ووقائعها ، على أننا نذكر إن أهم معارك هذه الحرب كانت معركة « بلينيو » التى استمرت يومين ولم تنته إلى نتيجة حاسمة لأن كونديه ترك ميدان القتال وتقهقر إلى باريس فتبعه تورين .

وفى أثناء هذا الصراع قام البرلمان والبلاط وبلدية باريس والأمراء وجوندى دى ريتز الذى أصبح كردينال ريتز ومازاران بمفاوضات مع بعضهم بعضا . وتوسط فى الموضوع مئات من الشخصيات البارزة لوضع حد لهذه الحالة المحزنة حقا . ولكن لم تسفر المفاوضات عن حسم النزاع ولاعن اتخاذ أى قرار لأنها لم تكن قائمة على أسس متينه بل كانت تنطوى على كثير من الخداع والحيل المكشوفة والنيات السيئة .

وأخيرا وجد أن السبيل الوحيد إلى الصلح هو زواج لويس الرابع عشر « الجراند مدموازيل » بالرغم من أنها تكبره بإحدى عشرة سنة . وقد لاقى هذا الاقتراح رضاء واغتباط حزب الأمراء الذى كان لهذه الأميرة نفوذا كبيرا فيه ، واهتم مازاران

بتنفيذه نظراً لأن الأميرة كانت تمتلك ثروة طائلة وبدأت المفاوضات وتخللتها مكائد وألاعيب ومساومات .

وبينما كانت المفاوضات دائرة ، تقابل الجيشان فى أول يوليه سنة ١٦٥٢ على أبواب باريس ، فأغلقت المدينة أبوابها فى وجه الجيشين .

وفى ٢ يوليو تقدم كوندیه حتى « كورلارين » خارج الأبواب ، ووصل جيشه إلى ضاحية سانت انطوان ودارت هناك معركة كبيرة هزم فيها الماريشال دى لا فيرتيه مساعد تورين جيش الأمراء الذى وجد نفسه محصورا بين جيش الملك وأبواب باريس ، وظل باب سانت انطوان الذى يحمى الباستيل مغلقا .

وعمدت الفرق الملكية إلى تقطيع أوصال جيش الأمراء حتى يلقى الهزيمة المحتومة ، ولكن حدث فجأة أن أخذت المدافع تطلق نيرانها من أبراج الباستيل على جيش الملك ، وفى نفس الوقت فتح باب سانت انطوان بأعجوبة أو بقوة سحرية ، فاستطاع جنود جيش الأمراء أن يقتحموه ويفروا من مهاجميهم ، ولما تم ذلك أغلق الباب خلفهم .

وكانت « الجراند مدموازيل » هى التى نظمت هذا العمل الجرىء وهى التى أشرفت على إطلاق المدافع ووجهت جنودها إلى موضع التصويب ، وكان من نتيجة هذه المفاجأة أن توقف جيش الملك ، كما قطعت نهائيا المفاوضات بشأن زواجها من الملك .

وهكذا استطاع كونديه أن ينقذ فرقه كما أنقذ نفسه ولكنه لم يفتر طويلا بنجاحه فى غزو باريس . ذلك لأن هذا الغزو الذى قام به جنود معظمهم من الأجانب ، أثار سخط وحنق السكان . وأدى إلى ذعر وفزع البرلمان فحدثت قلاقل واضطرابات ذبح فيها عدد كبير من أعضاء البلدية . وأحرقت دارها واضطر كونديه إلى الالتجاء إلى معسكر الأسبان فى الأراضى الواطئة .

وفى ٢١ أكتوبر سنة ١٦٥٢ دخل الملك بحراسة تورين إلى عاصمة بلاده وسط هتاف يشق عنان السماء . وبذلك قضى على هذه الحرب الأهلية .

الباب الثالث

نضوج وعى الملك وحبه الاول

فى ٧ يونية سنة ١٦٥٤ احتفل فى كاتدرائية ريمس الكبرى، المشيدة على الطراز القوطى ، بتقديس لويس الرابع عشر طبقا للطقوس والتقاليد التى سار عليها ملوك فرنسا منذ عهد لويس السابع ، فرددت القباب القوطية اليمين الذى حلفه الملك أمام رجال الدين ورجال الدولة

وتمثلت فى هذا الاحتفال الدينى الكبير ظاهرتان تدلان على أن آثار الحرب الأهلية لاتزال باقية . فإنه لم يحضر من أمراء الأسرة المالكة إلا شقيق الملك ، دوق أنجو ، لأن الباقين كانوا ما بين ثائر ومغضوب عليه . كما أن الأسرة الملكية كانت فى حالة عسر مالى شديد إلى درجة أنه لم يمكن شراء خاتم جميل للملك يتولى رئيس أساقفة الكاتدرائية وضعه فى بنصر اليد اليسرى كرمز لزواجه بفرنسا وفقا للتقاليد المرعية ، فأعارته الملكة خاتما يناسب المقام من الخواتم التى آلت اليها عن طريق الميراث الخاص .

وبعد أيام رحل الملك إلى ميدان الحرب المستعرة الأوار بين فرنسا وأسبانيا ، ولقد أثار حضوره حماس الجنود فاستماتوا فى القتال

تحت قيادة « تورين » حتى استطاعوا رفع الحصار عن مدينة أراس فهنأ الملك قائده على مابذل من جهد توج بالنصر .

لم يكن الملك مهتما بشئون الجيش فحسب ، بل بكل أمور الدولة إنه كان يريد أن يعرف ويدرس ويتعلم كل شيء فيها ، ليكون خبيرا وملماً بأمورها وكان يريد أن يتعلم مهنة الملك وأن يتقنها تمام الإتقان وأن يتفوق فيها على كل الملوك السابقين فاتخذ « مازاران » معلما له لما امتاز به من خبرة ودقة ومقدرة فى تصريف الأمور .

وكان « مازاران » معلما مخلصا ، وفيا ، محبا لتلميذه الذكى المحب للاستطلاع ، المجد فى عمله ، الراغب فى الالمام بكل مايخص مهنته ، والذى أصبح يستطيع أن يقدر الأمور ويحسن التصرف ، ومع هذا فكثيرا ما كان يترك الملك لوزيره وأستاذه « مازاران » الحبل على الغارب فيعمل بكل حرية ، وإنما لم يكن ذلك عن كسل أو تراخ أو ضعف لأنه لم يتردد إطلاقا فى التدخل عندما كان الحال يتطلب ذلك لوضع الأمور فى نصابها ، فإنه لما اشتدت المعارضة البرلمانية ، رأى أن يقضى عليها فدخل إلى قاعة الاجتماع وهو بملابس الصيد وأملى إرادته ، ومن ذلك اليوم أدرك الجميع أن وعى الملك قد نضج .

وأخذت أيام الضنك والعسر المالى فى الزوال ، وبدأت حياة الرخاء تسير فى مجراها الطبيعى ، كما أخذت الأسرة المالكة تستعيد عهد الحفلات والمرح واللهو بعد أن أصلحت قصور اللوفر وفونتنبلو وسان جرمان وأعدتها بأفخر الأثاث والرياش ، فكانت أينما انتقلت ينتقل معها هذا الجو المرح الساحر بموسيقاه ومسرحياته ورقصه وطربه .

كما كان الكردينال مازاران يقيم فى قصره المنيف حفلات رائعة يدعو اليها الأسرة المالكة والأمراء والعظماء فينعمون بكل ماتحوى من مرح وذوق وأناقة وإبداع وفتنة ، كانت حفلات زخرت بوصفها كتب ومؤلفات بشتى اللغات .

كان يتردد على حفلات مازاران بنات أخته الخمس ، الآنسات مانشينى ، كن خمس فتيات رائعات ، ناضرات ، اكتملت أنوثتهن وفتنتهن ، وكن يشعرن فى بادىء الأمر أنهن غريبات عن هذا الوسط ، ولكن سرعان ما زال عنهن هذا الشعور ، لأن جمالهن الساحر ، وثراءهن الوفير ، وقرابتهن للكردينال جعلتهن موضع الحفاوة والتكريم من جميع المدعوين .

تزوجت كبراهن « لور » من الدوق ميركور ، كما تزوجت الثانية بأمير من بيت ساڤوى هو الكونت دى سواسون ، وبقيت الثلاث الأخريات تجذبن بابتسامتهن الساحرة انظار الراغبين فى الزواج .

على أن ثالثهن « مارى » كانت تبدو غريبة عن باقى أخواتها ، كان يلوح أنها ليست من بنات هذه الأسرة الممتازة ، فلقد كانت أقل اخواتها جمالا وفتنة فكن يزجرنها ولا يهتممن بها ، كما كانت أمها لاتعطف عليها ، ولا تدللها كما تعطف وتدلل بناتها الأربع ، وكانت تقول لها إنه الأجدر بها أن تقيم فى الدير ، ولكن مارى مانشينى لم ترد أن تدخل الدير ، حيث العزلة والتقشف ، لأنها تحب الحياة حيث المرح والنعيم .

ولقد تأثرت نفسية هذه الفتاة من تأنيب أمها لها ، ومن تهكم وسخرية اخواتها وتعمدهن الثيل منها أمام الناس كما لو أنها ارتكبت جرما وإثما ، فنشأت فيها عقدة النقص فأصبحت تعتقد أنه ليس من المناسب لها أن تذهب مثلهن إلى الحفلات ، أو أن تشترك فى الرقص ، وزاد فى تأثير هذه العقدة النفسية ما كانت تراه من إحجام الرجال عن دعوتها إلى مراقصتهم أو مشاركتهم اللعب والحديث ، فكانت إذا ذهبت إلى حفلة من حفلات الأسرة المالكة أو من حفلات خالها الكردينال لكى تسرى عن نفسها ، تمضى الوقت فى البكاء والنحيب ، بين أروقة القصر وطرقاته ، فى معزل عن الجلبة والمرح .

كان الملك يلقاها وهى على هذه الحالة ، فيتألم من دموعها المنهمرة على خديها ، فيمسحها بابتسامته الخلابة ، فتبتسم له شاكرة عطفه ، مقدرة جميله ، وبقدرة ساحر ماهر تغيرت حالة الفتاة ، وتخلصت من عقدتها النفسيه ، فزال الحزن وذهب الأسى ، وجفت الدموع ، وحل محلها الفرح ، والأمل ، والابتسام المشرق ، ولم تعد تخشى الظهور فى الحفلات والاشتراك فى الرقص ، ولم تعد تأبه لتهكم شقيقاتها ومقت أمها لها . لقد أخذها الملك إلى حلبة الرقص ، ورقص معها بين دهشة المدعوات وحسد وغيرة الشقيقات ، وبعد ذلك أخذ كل واحد يتفانى فى إكرامها وملاطفتها يحدوه الأمل أن تسمح له بمراقصتها ولو مرة واحـــدة ، وهكذا انتهى عهد السخرية والازدراء ، وجاء عهد السعادة والهناء ، وللسعادة سحرها وتأثيرها

فى النفس . فبدت الفتاة جميلة ، حتى طغت على جميع المدعوات .

ومال الملك إلى هذه الفتاة ، فكانا يخرجان معا للتريض فى حدائق فونتينبلو ، وغاب بولونيا ، ويتحدثان ويسمران ، وكانا يذهبان معا للصيد .

وذات يوم بينما كانا يطالعان معا كتابا للشاعر الإيطالى « بترارك » نظر الملك إلى ماري مانشيني وقال لها :

هل يروق لك أن تصبحى ملكة فرنسا .

ا معقد لسان الفتاة عن الإجابة . فعبرت نظراتها عما يخالج قلبها ، إنها بلا شك كانت تتمنى هذه الأمنية العزيزة المنال من صميم قلبها . وأخذت تتخيل نفسها وهى متربعة على عرش فرنسا بعد أن كانت فتاة إيطالية خاملة لاتجد عطفا من أحد . حتى من أمها وأخواتها ، إنها الآن تزهو بهذا الأمل ، ستكون ملكة ! وستكون شقيقاتها المتعجرفات من رعاياها !

ووقفت الملكة الوالدة آن دوتريش على مشروعات ابنها الملك ، فغضبت أشد الغضب واحتدت على الكردينال مازاران ووجهت إليه كل اللوم والتأنيب لأنه لم يعمل على منع ابنة شقيقته من الاتصال بالملك ولم يعترض على تصرفاتها ، وصرحت بأنها لن توافق على هذا الزواج ، وقالت للكردينال : « إذا ماأصر الملك على ذلك فإنى أنذرك بأن فرنسا كلها ستثور عليك وعليه . ، وأنا نفسى سأكون على رأس الثوار وأضم اليهم ابنى الثانى دوق انجو .

لم يأبه الملك لما حدث بين الملكة ومازاران فتركهما وشأنهما وذهب إلى ميدان القتال فى ساحة دانكرك بين الجيوش الفرنسية والأسبانية حيث لاقت الجيوش الفرنسية بقيادة تورين جيوش الأعداء بقيادة كونديه ودارت على التلال المحيطة بالمدينة معركة رهيبة انتصر فيها جيش تورين انتصارا ساحقا ، وأخذ يطارد الأعداء

مارى مانشينى

بلا هوادة حتى كاد يوقع به نكبة مروعة لولا أن حدث حادث فجائى أزعج فرنسا كلها فتوقفت الجيوش الفرنسية عن المطاردة والقتال

انتظارا لنتيجة هذا الحادث وهو أن لويس الرابع عشر أصيب بحمى شديدة وساءت حالته الصحية بسرعة حتى أصبحت تنذر بالخطر فقلق الشعب على مليكه المحبوب وتوقف عن العمل ولم يعد يهتم إلا بحالة الملك . وأقيمت الصلوات فى المعابد والكنائس فى كل أنحاء فرنسا من أجل شفاء الملك ، الذى كان الناس فى أشد حاجة اليه ، لمواهبه ونشاطه . ويعلقون عليه كل آمالهم فى إصلاح الأحوال الداخلية وتوطيد السلام وإنهاض الشعب ورفعة الوطن .

لم ينقطع الملك أثناء مرضه عن الكتابة إلى مارى مانشينى ، وكانت رسائله إليها تعبيرا صادقا لشعوره نحوها ، فتقرأها بفيض من الألم والأمل ، الألم لمرضه والأمل بإبلاله ، وتمضى كل وقتها فى الصلاة والابتهال إلى الله أن يمن عليه بالشفاء العاجل ، فلما أبل الملك من مرضه أسرع إلى لقائها . ولما عرف بحالتها أثناء مرضه ووقف على إخلاصها له ازداد حبه وتقديره وإخلاصه لها . على أن الفتاة لم تكن تخفى رسائل الملك إليها فى مكان أمين ،فاستطاع أعوان الملكة أن يعرفوا كل مافيها .

لما عادت الأسرة المالكة إلى اللوفر فكرت جديا فى ضرورة زواج الملك . وكانت الملكة تتحدث طويلا عن مازاران فى هذا الموضوع الهام ، وكانا فى حديثهما الطويل الذى يستمر أحيانا إلى وقت متأخر من الليل يستعرضان كل الأوجه لحل هذا الموضوع ويستعرضان الأميرات المعروفات الجديرات بالزواج من ملك شاب عظيم .

وقد عرضا أولا الأميرة هنريت الإنجليزية ابنة شارل ستيوارت الذى كان ملكا لانجلترا وثار عليه الشعب وقطع رأسه ، فلجأت هذه الأميرة إلى باريس حيث عاشت فى فقر وعوز حتى إنها كانت لا تستطيع الحصول على قليل من الفحم للتدفئة ، وكانت ترتدى ملابس أمها البالية التى باعت كل ما تمتلك لإنقاذ زوجها . وبعد البحث وجد أن زواج لويس الرابع عشر بهذه الأميرة قد يؤدى إلى تعكير صفو العلاقات بين فرنسا وانجلترا ، التى كان يتولى شئونها فى ذلك الوقت الوزير كرومويل ، ويحكمها حكما استبدادياً بعد أن جمع فى يده كل سلطات ونفوذ ملك لا ينقصه إلا التاج ، فلم يكن هناك داع والحالة هذه إلى خلق أعداء آخرين .

وانتقل التفكير بعد ذلك إلى ابنة دوق ساڤوى وحفيدة هنرى الرابع . واستمرت المشاورة مدة أخرى حول المزايا التى تحصل عليها فرنسا من ارتباط الأسرة المالكة ببيت ساڤوى ، ولكن لما وجد أنه لا يترتب على المصاهرة بهذا البيت نتائج قيمة تقرر صرف النظر عن الزواج من هذه الأميرة .

وبعد ذلك دار البحث حول الأميرة الأسبانية مارى تيريز ابنة ملك أسبانيا ، لأنه كان من المتوقع أن ترث عرش أسپانيا فى وقت ما لأن أباها كان مريضا كما أن أخاها الصغير كان مريضا كذلك بل وعلى حافة الموت ، وحتى إذا لم تستطع أن تنال حقها فى عرش أسبانيا فى حالة زواجها من ملك فرنسا ، فإن هذا الزواج لا يحرمها من حقوقها

باعتبارها من آل دوتريش فترث أملاكا كبيرة . وبذلك يسهل إعادة إنشاء أمبراطورية شارلكان العظيمة وهى الأمبراطورية التى لا تغرب الشمس عن أملاكها لأن أسبانيا كانت تملك مستعمرات شاسعة غنية .

وبينما كانت الملكة تمضى كل وقتها مع مازاران فى بحث هذا الموضوع الحيوى الذى أصبح شغلها الشاغل . كان الملك لا يفكر إلا فى مارى مانشينى . كانا يمرحان معا ، وكان يقرأ لها الأشعار الإيطالية التى تحبها ليبرهن لها على حبه وكانت هى تقرأ له أشعار الشاعر الفرنسى كورنى أو تغنى له أغانى بلادها الجميلة ، كانا لا يعبآن بشىء ، فيمضيان النهار فى اللهو والتنزه فى فونتنبلو ، والليل فى الرقص فى اللوفر . وكان الملك أثناء ذلك ينادى مارى بكلمة مليكتى .

لما استقر رأى الملكة ومازاران على اختيار ابنة ملك أسبانيا ، أرسل مازاران إلى أسبانيا مبعوثا خاصا إسمه «ليون» وزوده بتعليماته ، ورحل المبعوث باسم مستعار وكان عليه أن يدرس الطريقة التى تؤدى إلى السلام بين الدولتين ولكنه فشل فى مهمته لأنه وجد أن السلام لا يمكن أن يتوطد إلا بعد مناقشات ومفاوضات ، حتى إنه لما أشار للوزير الأسبانى الدوق دى هارو إلى صورة الأميرة المعلقة فى قاعة الاجتماع قائلا إن صاحبة هذه الصورة تستطيع أن تصالح أمورا كثيرة ، لم يجب الوزير الأسبانى بشىء ما . وكل ما حدث أنه فى اليوم التالى لم يجد المبعوث الفرنسى صورة الأميرة فى مكانها .

ولما عاد مندوب مازاران إلى فرنسا واطلع ملكتها على نتائج مهمته . استشاطت غضبا وقالت : سأعرف كيف احمل شقيقى على الإفصاح عن رأيه .

ولجأت إلى حيلة بارعة وهى دعوة ابنة دوق سافوى إلى الحضور إلى ليون، وانتقال الأسرة المالكة إلى مقابلتها فى هذه المدينة فيثير انتقالها فضول ملك أسبانيا ويعمل على معرفة بواعث الانتقال حتى إذا ما عرف الدافع ، وكانت له الرغبة فى أن تتزوج ابنته من ملك فرنسا لتوطيد السلام بين الدولتين سارع إلى إرسال رسول خاص إلى ملكة فرنسا ومعه كتاب الموافقه .

وتمت الترتيبات اللازمة لتنفيذ هذا المشروع ، ورحلت الأسرة المالكة ومعها مارى ماتشينى فى موكب حافل الى ليون

كان الطريق برغم وعورته قصيرا بديعا أمامهما ، وما أن ابتعدا عن باريس حتى نزلا عن العربات وركبا الجيـــاد وأخذا يركضان بكل حرية .

قال الملك لمارى : مليكتى لاتتزعجى ، إن هذا الزواج لن يتم .

واستمر طول الرحلة يحدثها عن آماله ومشروعاته وأسرار الدوله لكى يسرى عنها ويدخل فى روعها أنه وفى للعهد ، مخلص لها .

وكلما اقترب الموكب من مدينة ، كان الملك يسرع بالركوب فى العربة بجانب أمه، ويستعد لسماع خطب وكلمات رجال الدين والمدنيين

وأعضاء الهيئة النيابية ويتسلم منهم فى نهاية حفلة الترحيب والتكريم المفاتيح الرمزية للمدينة .

استمر الحال على هذا المنوال حتى مدينة ليون، التى استعدت لاستقبال الأسرة المالكة أجمل استعداد ، فدخلتها فى موكب رائع زاخر وأقامت فيها حتى وصل موكب آل سافوى فاستقبلته بكل ترحاب بين حماس شعبى منقطع النظير .

وأقيمت حفلة راقصة رقص فيها الملك مع أميرة سافوى المرشحه لزواجه تكريما لها . وكان منشرحا ، بادى السرور والمرح مما أثار حنق مارى مانشينى ولكنه طمأنها وأفهمها أنه فعل ذلك من قبيل الواجب ومراعاة الشعور .

فى أثناء الحفلة وصل رجل أجنبى مغبر الوجه من وعثاء السفر ، يدل منظره على أنه قادم من جهة بعيدة ، وطلب محادثة الكردينال مازاران شخصيا لأمر هام .

استقبله فى بادىء الأمر كولبير سكرتير مازاران، وحاول أن يعرف منه الغرض من المقابلة ، ولكنه رفض أن يدلى بشىء وأصر على مقابلة مازاران فى الحال ، فاضطر كولبير إلى أن يدخله إلى سيده ، وبعد حديث قصير عاد الكردينال إلى القاعة الكبرى حيث كانت الموسيقى تصدح والمدعوون يرقصون ويطربون ، واقترب من الملكة وقال لها :

وصلنى الآن خبر هام أحب أن أطلع جلالتك عليه ، يتضمن أمرا لم يكن يخطر ببال مولاتى .

قالت الملكة : هل بعث أخى الملك بالأميرة ابنته .

أجاب الكردينال : نعم ، مولاتى .

وسلمها رسالة من ملك أسبانيا يتمنى فيها السلام ويوافق على زواج ابنته من لويس الرابع عشر ملك فرنسا لتوطيد العلاقات بين الدولتين . وبذلك فشل مشروع الزواج بأميرة ساقوى أو بمعنى أوضح نجحت حيلة ملكة فرنسا .

وعادت الأسرة المالكة إلى باريس بكل سرعة ، وكانت مارى مانشينى فى غاية السرور ، لأنها لم تعلم بما حدث فاعتقدت أنه وقع الاختيار عليها نهائيا . وفى الطريق كانت تشاكس الملك بقولها : ألا تخجل من الزواج بأميرة دميمة .

والواقع أن أميرة ساقوى لم تكن دميمة ، إلا أن مارى مانشينى كانت تصفها بالدمامة بدافع الغيرة . وهكذا انتصرت . ولكن انتصارها كان قصير الأجل .

وفى باريس بدأت مفاوضات الزواج ، وأخبرت الملكة ابنها صراحة بأن عهد الحب قد انتهى وأن عليه أن يفكر جديا فى الزواج من الأميرة الأسبانية ، وأن المسألة لم تعد مهزلة كما حدث من قبل بل أمرا واقعا لابد من تنفيذه لصالح الدولة ، لأن عليه يتوقف السلام فى أوروبا .

احتد لويس الرابع عشر عند سماعه هذا القول ، وغضب غضبا شديدا ولكنه وجد أمامه ارادة لاتلين ، فاشتد تأثره حتى بكى بكاء

مرا وتوسل إلى الكردينال ورجاه أن يدعه وشأنه ولكن الملكة كانت قد عقدت النية على إتمام هذا الزواج ، فلم تقبل أى كلمة ، وكانت عنيدة متمسكة برأيها .

وعلم الشعب الفرنسى أن السلام يتوقف على زواج الملك بابنة ملك أسبانيا وأن المفاوضات دائرة لإتمام المشروع ، سر كل السرور وهرع إلى القصر الملكى يهتف من الأعماق للملك ، ذلك لأن الحرب كانت مستمرة لمدة خمس وعشرين سنة . تحمل الشعب نكبات وخسائر مروعة واستولى عليه اليأس والقنوط ولم يعد يأمل فى السلام ، فلا غرو إذا عمره الفرح وهتف من كل قلبه إلى مليكه مثابة توسل اليه أن يقبل هذا الزواج لأن فيه خير الوطن .

وكان الملك إذا خرج مع الكردينال إلى شوارع باريس يستقبلهما الناس بهتافات مدوية ، وكانت مارى تبكى أخر بكاء عند سماعها هتاف الشعب الذى يملى رغبته على لويس

وأخيرا رضخ الملك وقبل الزواج ، فى صباح يوم صاف ، اصطفت عدة عربات فى فناء قصر اللوفر ركبت فيها بعض السيدات والآنسات مانشينى ومربيتهن مدام دى فينيل لتقلهن إلى لاروشيل .

وبينما كانت العربات على وشك المسير أقبل شاب عارى الرأس وأسرع إلى باب العربة الأولى ، كان هذا الشاب ملك فرنسا ، تحدث طويلا مع احدى راكبات العربة ثم انحنى أمامها وبكى متأثرا كانت كلمات وداع مارى مانشينى له هى :

مولاى ، انت الملك ، انت تبكى وأنا ارحل ..
وسارت العربة ، وارتمت مارى مانشينى على مقعدها خائرة القوى.

* * *

كانت المفاوضات بين مازاران وبين الدون لويس دى هارو الوزير الأسبانى طويله ومعقده ودقيقـــه للغاية . كان لزاما على الكردينال أن يتوسل بكل ما أوتى من لباقة ودهاء ومقدرة وإلمام بالأمور الدبلوماتيه لكى لاتفشل المفاوضات مع خصمه العنيد فكانت كل مادة من مواد المفاوضة تتطلب مساومات ومناقشات لانهاية لها ، وأخيرا أمكن الاتفاق على نصوص معاهدة السلام وعلى شروط الزواج ، فكتب مازاران إلى البلاط أن ملك فرنسا يستطع أن يسافر إلى الحدود الأسبانية ليأخذ زوجته

ورحل الملك من باريس فى موكب حافل ، وجهته مدينة سان جان دى لوز . وعلى طول الطريق كان يقابل بهتاف يشق عنان السماء ، كان الشعب يهتف « السلام . السلام » كما يهتف للملك والملكه ، إنه لايحصل على السلام فحسب بل على ملكة شابه . وكانت أجراس الكنائس تدق دقات الفرح والسرور ، كما كان رجال الدين ينتظرون مرور الملك ليباركوه .

فى وسط هذا المرح الشامل ، كانت آن دوتريش مهمومة شاردة الفكر ، كانت تفكر فى أمر هـــام وهو أن الموكب سيمر بمدينة لاروشيل وفيها مارى مانشينى التى لم ينقطع الملك عن الكتابة إليها كما لم تنقطع هى عن التفكير فى حلمها الذهبى .

وقد حدث عندما وصل الموكب إلى مدينة سان جان دانجيلى أن كانت الآنسات مانشينى فى الانتظار لتحية الملكة ، وإنما أغرب ماحدث وأقلق بال الملكة آن دوتريش ان الملك سبق الموكب وقابل مارى مانشينى وتحدث معها حديثا طويلا .

لم تستطع الملكة أن تغير طريق الموكب ، ولا أن تمنع الملك من مقابلة مارى ، فخشيت أن يضيع كل مابذلت من جهد ومشقة .

على أن الملك مع ذلك ظهر بمظهر ملك ، وحافظ على العهد الذى قطعه لأمه واتخذ مكانه بجانبها فى العربة وقال لها : إلى بوردو إلى وردو

لقد استمع إلى صوت العقل وإلى صوت شعبه ، وكان هذان الصوتان أقوى من صوت قلبه .

لم تأت مارى مانشينى إلى بوردو ، فإن أحد فرسان الملك حمل إليها هدية ظريفة وهى كلبة الملك المدلله « فريبون » التى شهدت ساعات السرور والحب ، ولقد دلت الكلبة بمداعبتها الأليفة على الوداع النهائى .

الباب الرابع

زواج لتوطيد السلام

ذهب الدوق « دوجرامون » ماريشال فرنسا إلى أسبانيا ليقدم إلى ملكها فى قصره فى مدريد طلب زواج مولاه لويس الرابع عشر بالأميرة ابنته .

كان موكب هذا الدوق المكلف بمهمة رسمية من قبل ملك شاب على جانب عظيم من الأبهة والعظمة ففى الطليعة كان الأشراف يسيرون يتبعهم الجنود المشاة والفرسان بقبعاتهم المزركشة ثم عربة السفير الأنيقة تجرها الجياد الأصيلة المطهمة ويحيط بها حرسه الخاص بملابس رائعة وخوذات وردية وخلفها أركان حربه .

كانت الوان الريش الزاهية على قبعات الأشراف والضباط وبريق الذهب والفضة والدانتلا والأشرطة التى تزين ملابسهم ، مما يبهر الأبصار فى هذا الموكب المرح المتوجه بكل سرعة إلى قصر الملك .

ووقفت الأميرة الأسبانية خلف قضبان نافذتها الضيقة ، لترى القادمين من الخارج لطلب يدها .

ولم يهتم السفير بمشاهدة الزينات والأعلام الجميلة المرفوعة على المنازل ،ولا بالنظر إلى نساء مدريد الفاتنات بشيلانهن الرائعة ، فى النوافذ والشرفات يتطلعن إلى رسول السلام من أجل أميرتهن الحسناء. ولما وصل الموكب إلى القصر الملكى نزل الماريشال من عربته فحياه رجال البلاط والحاشية بحفاتهم المعهود وصبوه إلى داخل القصر يتقدمهم جنود الحرس من حملة الرماح ، حيث استقبلته الأسرة المالكة والحاشية وأهم ما لفت نظره سكون القوم وصمتهم . ولم يعجبه منظرهم فقد كان الرجال يرتدون ملابس سوداء فى غاية البساطة وكانت السيدات أيضاً لبسن ثياباً سوداء بدون تطريز فكن أشبه بصناديق مغلقة من الصعب تمييز أشكالهن الحقيقية وكن يضعن على رؤوسهن خصلات من الشعر المستعار تغطيتها شيلان من الدانتلا السوداء .

كان البون شاسعاً بين وجوم الأسبانيين بملابس الحزن وبين مرح وحيوية الفرنسيين كما كان الظلام مخيما داخل القصر فى حين كانت الشمس ساطعة فى الشوارع والميادين ، لأن نوافذ القصر صغيرة جدا عليها مشربيات من الخشب ، لندرة الزجاج فى أسبانيا ، فكانت لذلك تحجب الأشعة الضوئية .

واختار مبعوث ملك فرنسا صالونات ودهاليز متعددة ، وكلها على نسق واحد ، يسود فيها الصمت الرهيب والظلمة المقبضة وكأنها مقابر موحشة حتى وصل إلى القاعة الأخيره ، حيث رأى الملك بملابس سوداء بسيطة جالسا بكل صمت وهدوء على أريكة بديعة .

والقى الدوق كلمة منمقة حوت كل أساليب البلاغة والبيان وكان ثابتاً ساكتا ، فلما تمت الخطبة أومأ الملك برأسه إعلاناً بانتهاء المقابلة.

وبعد ذلك أدخل الدوق إلى صالون مجاور وجد فيه الأميرة ، وكانت فى سن العشرين ، ذات وجه طويل ، وعينين زرقاوين ، وشعر مزين بخصلات تربطها أشرطه ملونة ، وانحنى أمامها الدوق بكل احترام وقبل طرف ثوبها ، وكأنما أصيب بعدوى الصمت فلم ينبت ببنت شفه .

كان الدوق أثناء إقامته فى مدريد موضع حفاوة وتكريم ، حتى إنه دعى إلى العشاء مع الملكة التى اعتادت أن تتناول وجباتها بمفردها وهى جالسة بين سيدتين فى ثياب بيضاء تتناولان الصحاف من الخدم وتقدمانها اليها ، وتنافس الأمراء والأشراف فى إكرام الفرنسيين . وكانت أعظم المآدب التى أقيمت للاحتفاء بهم مأدبة الأميرال دى كاستيل حيث قدم لهم على المائدة أكثر من خمسمائة صنف من الطعام والشراب .

وبعد أيام أرسل إليهم الملك هداياه بمثابة انتهاء الزيارة الرسمية. فذهب إليه الدوق بنفس الطريقة التى قدم بها ليستأذن فى العودة إلى وطنه ، فأعطاه رسالة إلى مليكه ، وكان الدوق يريد أن يحمل معه بعض كلمات من الأميرة الشابة فاستعان بكل ما أوتى من لباقة وذكاء حتى وفق إلى أن يظفر منها بهذه الكلمات : «قل للملكة ، سيدتى وعمتى ، إننى سأكون دائما عند حسن ظنها » .

فلما رجع إلى فرنسا أطلع الملك على نتائج مهمته . وكانت تتلخص فى أن الزواج لا يمكن أن يتم فى الحال لأن ملك أسبانيا يرغب فى أن يرافق ابنته إلى حدود مملكته ليرى شقيقته ملكة فرنسا . وكان الوقت شتاء ، وفيه يتعذر القيام برحلة طويلة كهذه ، لأن الطرق تكون غير صالحة لموكب حافل .

فاقتنعت الأسرة المالكة الفرنسيه بهذه النتائج ورأت أن تمضى فترة الانتظار فى زيارة إقليم الجنوب الذى يرفرف على ربوعه السلام منذ عهد قريب . وبعد ذلك أخذت تستعد لاستقبال ملك أسبانيا وابنته ، وقررت بمناسبة انتهاء عهد القيود والحرمان أن تبالغ فى العظمة والأبهة للتأثير فى الأسبان أعداء الأمس وحلفاء الغد ، فاستوردت أجود أنواع الأقمشة والحرائر والأصواف والدانتلات وأعدت العدة لإصلاح قصر اللوفر وتنسيقه بأفخر الرياش والأثاث وأشرف الملك بنفسه على وضع الرسومات والتصميمات والنقوش كما عكفت الملكة على إعداد جهاز العروس بمعاونة كولبير ، وكان مازاران يبدى آراءه السديدة ويسدى نصائحه عن خبرة ودراية لكى يكون كل شىء أجمل مافى الوجود ، فقال للملك :

إذا لم يكن فى خزينة مولاى ما يكفى من المال لسد النفقات اللازمة فليأخذ من أموالى مايشاء ، فإن كل ما أملك تحت تصرف الملك . وقد كانت هذه الكلمات من وزير مشهور بالبخل والتقتير موضع تأويلات وتعليقات طويلة .

ولما جاء اليوم المرتقب ، أقيم فى جزيرة « فيزان » فى وسط « نهر البيداسو » الذى يفصل المملكتين ، سرادق كبير قسم إلى قسمين بينهما قاعة مشتركة وضع فى وسطها حاجز ومنع كل من الفريقين أن يجتازه . وفى هذا السرادق جرت المفاوضات .

تقابل الفرنسيون والأسبان فى هذه المناسبة السعيدة بعد أن كانوا منذ أسابيع قليلة يتقاتلون فى حومة الوغى ، فأخذوا يتبادلون نظرات الدهشة والتعجب .

لم يستطع الفرنسيون بملابسهم الزاهية من الحرير والقطيفه المطرزة بالذهب والفضة أن يحافظوا على مظهر الجد والوقار أمام صلابة رجال الحاشية الأسبان بملابسهم السوداء الخالية من الشرائط والريش ، وأن كان بعضهم يزينون قبعاتهم بقطع من الماس النادر الثمين ، على أنهم لم يخفوا اشمئزازهم من ملابس الفرنسيين لاعتزازهم بملابسهم السوداء الخشنة .

وبعد تبادل الخطب المعتادة ، دارت المفاوضات بين الطرفين ، وانتهت دون مشقة إلى إبرام صلح « برينيه » وبمقتضاه نالت فرنسا إقليم « لورسيون » وبعض نقط حصينة على حدود الفلاندر على أن تضيق حدودها فى اللورين فتوطد السلام بين الدولتين .

وفى كنيسة « فونتارابى » الأسبانية أقيم احتفال دينى كبير طبقا للتقاليد الأسبانية السائدة فى ذلك الوقت لزواج الأميرة بدون وجود الزوج الأصلى بأن يمثله وكيله ، وقد اختير الدوق لوزدى هارو

الأسبانى كتائب عن لويس الرابع عشر ، وبعد انتهاء هذه الطقوس الدينية ، توجهت الأميرة إلى السرادق المقام فى الجزيرة لتحية الملكة آن دوتريش عمتها .

« مارى تريز دوتريش »

وبينما كانت الأسرتان تتحدثان ، سمع طرق على باب السرادق ، فأسرع رجال الحاشية لرؤية الطارق ، ولكنهم ترجعوا باحترام ، لأنهم وجدوا أمامهم ملك فرنسا ، الذى جاء متنكراً ، ليرى لأول مرة هذه الأميرة التى أولته ثقتها ومحبتها .

وسألت آن دوتريش زوجة ابنها ، ومن يكون هذا الغريب ؟

ولكن ملك أسبانيا قطب جبينه وأسرع بالإجابة بدلا عن ابنته وقال : « لم يحن الوقت بعد » .

وعمد شقيق لويس إلى إنقاذ الموقف فغير مجرى الحديث بأن قال للأميرة : « مارأيك أيتها الأخت المحترمة فى هذا الباب .

فابتسمت الأميرة ، وأجابت : أراه رائعاً جميلا .

وعلى أثر ذلك انسحب الطارق الغريب وافترقت الأسرتان .

وأخيرا حل يوم تسليم الأميرة رسمياً إلى زوجها ، فلم يعمد الملك إلى التنكر هذه المرة ، بل ظهر فى السرادق يحيط به الأمراء والحاشية وبدأ التعارف بين رجال الفريقين ، فلما قدم الماريشال دى تورين إلى ملك أسبانيا خرج عن صمته المألوف وقال : هـذا رجل سبب لى متاعب وأشجان طويلة .

وكانت هذه اللفتة الملكية إلى خصم شجاع منتصر ، آخر كلمة للتذكير بالحرب الماضية .

وبعد أن تم التعارف ركع العاهلان أمام جانب من منضدة وضع عليها إنجيلان ، وأمسك كل منهما بالصليب ، ثم تليت على مسامعهما نصوص معاهدة الصلح والتحالف بالفرنسية والأسبانية فاقسم الملكان على تنفيذ المعاهدة بكل أمانة وإخلاص .

واجتازت الأميرة الحدود ، وقبل أن تفترق الأسرتان حاولت ملكة فرنسا أن تعانق شقيقها ملك أسبانيا ولكنه لم ينحن أمامها . وكان الوداع مؤثرا مسيلا للعبرات ، وبكت الأميرة طويلا وهى تخلع ملابسها الأسبانية لتتزين بالملابس التى أعدت لملكة فرنسا ، ثم أقيمت حفلة باهرة رائعة للاحتفال بالقران الحقيق فى « سان جان دى لوز » .

اشترك فيها الأمراء والنبلاء والأشراف واصطفت الجنود الفرنسية بأزياء جديدة أنيقة ، أعدت لهذا الموكب على طول الطريق بين القصر والكنيسة وتكدست الجماهير لرؤية طلعة الملكين .

وفى المساء أنيرت المدينة كلها ، ووقف الملكان فى شرفة القصر ، ونثرا على طوائف الشعب المجتمعة تهتف بحياتهما قطعاً كثيرة من الذهب سكت خصيصاً لهذه المناسبة السعيدة

وشمل الفرح فرنسا كلها ، فقد حملت إليها الأميرة الأسبانية سابقاً وملكة فرنسا حالا أعظم ما تتمناه وهو السلام الذى كانت تتوق اليه منذ عهد طويل ، وبهذا الزواج تنازلت عن حقوقها فى تاج أسبانيا لأنه نص فى المعاهدة على ذلك مقابل دوطة كبيرة تدفع لها .

فلا غرو والحالة هذه إذا قرعت أجراس الكنائس فى كل أنحاء البلاد للاحتفال بالسلام الذى وطدته أخيرا أميرة فى سن العشرين .

الباب الخامس

الملك يملك ويحكم

« إن الملك العظيم يجب أن يتولى بنفسه رئاسة الوزارة »
« لويس الرابع عشر »

كان يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٦٦٠ ، أروع وأجمل يوم شهدته باريس فى القرن السابع عشر كله ، فقد خرج جميع سكانها من شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، متجملين بأحسن ما عندهم من ملابس وجواهر وحلى لاستقبال طلعة الملكين الشابين بعد أن تم قرانهما .

وقفت جموع الشعب الغفيرة وهى تغنى وتنشد أناشيد المرح والغبطة على طول طريق الموكب الملكى الذى فاق فى التنظيم والإعداد مواكب الغزاة الظافرين والملوك المنتصرين .

كان الحرس السويسرى يسير فى الطليعة يتبعه الحرس الفرنسى ، وكان الضباط والجنود يرتدون ملابسهم التقليدية الفاخرة المطرزة بالذهب والفضة ، ويضعون فوق رؤوسهم قبعات عالية مزركشة بالريش المتعدد الألوان ، فكانت مجموعة بديعة من أقواس قزح بألوانها الباهرة تتحرك على أنغام موسيقية شجية تأخذ بمجامع القلوب وجاء بعدهم آل الكردينال وجياده الاثنان والسبعون ، على ظهورها

برادع أرجوانية وملجمة بلجم من الفضة الخالصة ، ثم اتباعه وحاشيته ، وبعد ذلك مواكب الأمراء والنبلاء ، وكان موكب كل واحد منهم مؤلفا من اثنتى عشرة عربة فاخرة يجر كل واحدة ستة جياد مطهمة وحولها حرسه وحاشيته بأزياء رائعة تبهر الأبصار ، ولم يشترك ما زاران بنفسه فى هذا الموكب المرح لمرضه واكتفى بأن وقف فى شرفة قصره يتفرج .

ولما مرت هذه المواكب البديعة جاء فى أثرها موكب الملكة الوالدة آن دوتريش ثم حاشية الملك والفرسان والأشراف وهى تتقدم عربة أنيقة تجرها ستة جياد قوية مزينة أبدع زينة ، جلست فيها بكل عظمة وزهو ، ملكة فرنسا الشابة ، مرتدية ثوبا رائعا من القطيفة السوداء الموشاة بالذهب الخالص والمتألقة بالجواهر الجميلة النادرة ، وازدان شعرها الذهبي بسنابل من الذهب والماس ، وصارت محط أنظار جميع الناس ، وسعى كل واحد جهده لرؤيتها . وكان لويس الرابع عشر مرتديا حلة فاخرة مزدانة بأنفس الجواهر وأروعها ، ممتطيا صهوة جواد أشهب جميل ، يسير بجانب عربة الملكة .

ومر بعد ذلك رتل طويل من العربات وسط هتاف الشعب المدوى للملك والملكة . وكان هتافا ينم عن عظيم الإخلاص والوفاء والتقدير للملك الشاب والملكة التى عدت حمامة السلام الوديعة .

واستمرت مواكب المرح أياما كان الشعب خلالها يذهب إلى

القصر الملكى ليرى الملكين ويهتف لهما ، فكانا يخرجان إلى الشرفة عثابة تعبير عن شكرهما .

* * *

وبعد شهور كانت الأسرة المالكة مجتمعة فى قصر فنسان القديم حيث كانت أعمال إصلاحه وتجديده قد توقفت لمرض الكردينال مازاران .

وبلغ مسامع الملكين أن الكردينال يجود بأنفاسه الأخيرة فهرعا إليه وألقيا عليه نظرتهما الأخيرة ، ولفظ الكردينال نفسه الأخير بحضور مولاه لويس الرابع عشر الذى تأثر تأثرا بالغا لوفاة هذا الخادم الأمين ، ولم يستطع أن يحبس دموعه ، فانحنى هو والملكة أمام فراش المتوفى احتراما له ، وكانت عيونهما مغرورقة بالدموع .

كان مازاران قد أتم رسالته خير أداء ومضى فى سلام بعد أن خدم طويلا بكل إخلاص البلد الذى اتخذه موطنا له .

وبعد أن شيع مازاران إلى مثواه الأخير ، مثل الوزراء أمام الملك وسألوه قائلين :

إلى من ياصاحب الجلالة نرفع رسائلنا وتقاريرنا ؟

أجاب الملك بكل هدوء : ارفعوها إلى شخصيا

أحدثت هذه الإجابة كثيرا من الدهشة والتساؤل ، فمعنى ذلك أن الملك لاينوى أن يعين رئيساً لوزرائه . وهو أمر لم يعرف منذ أكثر من خمسين سنة ، فيبطل بذلك تقليدا ثابتا معروفا . واقترب

شفاه الوزراء ورجال البلاط عن ابتسامات التشكك والاستغراب . فأكد بعضهم أنها فورة شاب تهدأ من تلقاء نفسها ، وقال آخرون إنها نتيجة رد الفعل الناشىء عن تخلصه من الكاردينال ، واقتنع الجميع بهذا الرأى وعلى أن هذا الحماس سيهدأ فى القريب العاجل .

ولكن هذا الحماس لم يهدأ ، لأنه إذا كان لويس الرابع عشر قد سمح لوزيره الأول أن يتصرف بكل حرية فإنه كان فى الواقع يريد أن يتعلم منه مهنة الحكم . وقد ألم بها إلماما تاما وأصبح مقتنعاً تمام الاقتناع أن هذه المهنة أصبحت مألوفة ومعروفة لديه ومستعرهن الحوادث المقبلة أنه كان على حق فيما قرره .

لقد قال عنه مازاران يوما ما : أنه يجمع نشاط أربعة ملوك وأنه رجل أمين ، وإذا كان مازاران قد أخطأ أحيانا فى حكمه على بعض الأمور فإنه لم يخطىء إطلاقا فى حكمه على الرجال

ومنذ أن قرر لويس الرابع عشر أن يجمع فى يده كل السلطات فرض على نفسه عملا شاقا مضنيا ، فكان يشتغل كثيراً ويمضى فى عمله وقتا طويلا ويرأس كل المجالس ويفحص بنفسه كل شئون الدولة مع بعض وزرائه .

فى ذلك الوقت كان هناك مجلس خاص يطلق عليه اسم المجلس السرى وكان مؤلفا من فوكيه وزير المالية وكولبير سكرتير مازاران وموضع ثقته التامة وقد أصبح فيما بعد من أعظم وزراء فرنسا ، ومن ليتنيبيه (ماركيز دى لوفوا) للشئون الحربية ، وليون للشئون الخارجية

وكان أول ماعهد به الملك لهذا المجلس هو إصلاح الحالة المالية التى اضطربت من جراء استمرار الحروب الطويلة التى توجتها بالنصر معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ ومعاهدة البرينيه فى ٧ نوفمبر سنة ١٦٥٩ وأصبحت فرنسا تتبوأ المكانة الأولى من الوجهة الدولية

كان النظام المالى سيئا عقيما ، وكان الموظفون أكثر منه سوءا فقد شاع بينهم التهاون والفساد وحب الرشوة والإهمال ، كما أن كفاح فرنسا الطويل فى الحروب المضنية الشاقة كلف البلاد أن تبذل أكثر مافى طاقتها ، فحدث بالرغم من النصر ، رد فعل شديد من الناحية الاقتصادية بسبب إنهاك قوى البلاد ومواردها .

وكانت الضرائب ثقيلة ، وموزعة توزيعاً سيئا ، وتجبى مقدما وكان نصف إيرادها يدخل فى خزائن الملك ، فأصلح الملك هذه الأحوال بأن قرر تعديل الضرائب بحيث تخف وطأتها كثيرا عن عاتق الممولين ، ومنع الاغتصاب ، وأنصف الناس ، وقضى على الرشوة وطهر الإدارة الحكومية ، وعاقب المستغلين للفرص الذين أفسدوا الحالة ، ووضع لها نظما جديدة تكفل حسن سير العمل بكل دقة ونزاهة ، وأعفى الفلاحين من أكثر من ثلاثين مليون فرنك كانت متأخرة عليهم من سنة ١٦٤٧ إلى سنة ١٦٥٦ ، كما وضع تشريعا جديدا لأرباب العائلات قضى بأن يعفى كل من يتزوج من ضريبة الرؤوس لمدة خمسه أعوام ، وأن يعفى منها مدى الحياة كل رب أسرة له عشرة أولاد على أن يعتبر منهم على قيد الحياة الجنود الذين لاقوا حتفهم

تحت العلم وفيما بعد تقرر أن يمنح هؤلاء الآباء معاشا ثابتا وصل فى بعض الحالات إلى ألفين من الجنيهات سنويا .

كان يساعد لويس الرابع عشر فى تنفيذ هذه المشروعات الإصلاحية الجليلة الشاب كولبير الذى قال عنه مازاران وهو على فراش الموت للملك : « مولاى : إنى مدين لكم بكل شىء ولكنى أعتقد أنى أوفى دينى لجلالتكم بإعطائكم كولبير »

لم يكن مازاران مغاليا فيما قال للملك ، لأن كولبير الذى كان فى سن الحادية والأربعين عندما ضمه الملك إلى المجلس السرى ، امتاز بعقل راجح ، وفكر ثاقب ، وذكاء نادر ، وإنكار ذات ، وإخلاص لاحد له للملك وللوطن .

وأخذ الملك يعمل على توفير السعادة والرفاهية لشعبه ، وإن رغبة نبيلة كهذه كان يمكن أن تصل إلى نتائج باهرة فى أقل وقت ممكن لو لم تصطدم بعقبات عرقلت سيرها ، وهى عقبات لم تنشأ إلا لأن الخزائن التى كانت تملأ بكل جد ونشاط ، حوت ثقوبا سرية تتسرب منها أموالا طائلة . فلا يعد ما يتبقى فيها يكفى لتنفيذ مشروعات الإصلاح النافعة ، وكان واضع هذه الثقوب السرية أحد أعضاء المجلس السرى وهو نقولا فوكيه .

كان هذا الرجل بالرغم من ثرائه الشخصى ، قد استطاع أن يختلس من الدخل العام مبالغ طائلة لا يمكن تقديرها ، وكان ينفق هذه الأموال التى حصل عليها بوسائل غير مشروعة على شخصه . وفى الوقت الذى

لم تجد فيه الدولة الأموال لتشجيع الحركة الفكرية والفنية تولى بنفسه هذه المهمة . فكان أكبر مشجع لهذه الحركة بأمواله الوفيرة فقد شجع الآداب والفنون والعلوم وكان رجلا عصريا حر الفكر ، مستنير الرأى

وكان الملك منذ وقت طويل على علم بخيانة فوكيه واختلاساته وسوء استعماله لسلطة وظيفته واستغلاله لها . إلا أن فوكيه هذا كان يتمتع بخطوة كبيرة لدى مازاران فضلا عن أنه كان قوى الشكيمة . وجبارا مرهبا نظرا لمركزه الهائل وتعوزه القوى فى القاطعة بريتانى التى نظم فيها ثورات وانقلابات كما حصن جزيرة « بيل ايل » تحصينا قويا لكى تكون وقت الضرورة قاعدة تموين الأسطول العدو ومركزا له . ولما ازدادت الحالة سوءا قرر الملك أن يعمل عملا حاسما ، ولكنه رأى أن يسير فى اجراءاته بكل حذر وروية حتى لا يؤدى عمله إلى معارضة أحد ، ولا يترتب عنه أى إخلال بالنظام العام .

فقرر أن يذهب لرئاسة الجمعية التشريعية لمقاطعة بريتانى ، وهناك دعاه فوكيه إلى الاستراحة فى قصر « ڤو » الهائل الذى كان قد أتم إعداده قبيل هذه الزياره وأنفق عليه أكثر من ثمانية مليون فرنك .

وفى ١٧ أغسطس سنة ١٦٦١ وصل الملك وحاشيته إلى هذا القصر الفخم ، الذى يعتبر من أعظم القصور التى شيدت فى القرن السابع عشر وأبدى الملك شديد إعجابه بما رأى . فلم تكن عيناه تنتهى من مشاهدة أعجوبة فنية رائعة ، إلا لتقع على أعجوبة أكثر روعة من سابقتها

فذهل مما رأى ، وازداد ذهوله عندما تنزه فى الحدائق البديعة التى وضع تنسيقها «ليثوتر» ، فكانت مزدانة بعدد لا يحصى من الزهريات الجميلة والتماثيل الكبيرة والمغارات والجبلايات المنحوتة بالمرمر تتفجر منها شلالات ونافورات ماء تنعكس عليها أشعة الشمس ، فيحدث هذا الانعكاس ألوانا خلابة ساحرة ، وامتدت هذه الحدائق على مدى البصر فقد اشتريت ثلاث قرى كبيرة وضمت اليها لتوسيعها ، وأخيرا شاهد الملك أسلحة فوكيه المتنوعة ودروعه وأوسمته . وأقام فوكيه حفلة رائعة تكريما للملك وتفانى فى إظهار سخائه إكراما لضيفه العزيز ، فشملت كل ما يمكن من ضروب الملاهى والمرح من رقص الباليه وموسيقى وغناء ومثلت فيها مسرحية « الثقلاء » لموليير لأول مرة فحازت نجاحا عظيما .

وأعد « ڤاتيل » أشهر طهاة العصر للعشاء مالذ وطاب من أفخر الأطعمة والمأكولات ، وقدم الطعام المتعدد الأصناف على ثلاثين مائدة مشحونة بالأوانى والفضيات فكانت تحوى ٣٦ دستة من أنواع المأكولات وخمسمائة دستة من الصحاف والأطباق المصنوعة من الفضة الخالصة .

أثار هذا البذخ والإسراف حفيظة الملك حتى إنه فكر فى أن يأمر بالقبض على الوزير الخائن المختلس أثناء الحفلة ، ولكن الملكة الوالدة أثرت عليه فعدل عن فكره ، لا باعتبار أن الملك كان ضيفه فحسب بل إن أمراً كهذه يمكن أن يذاع قبل أن ينفذ فيعطى مجالا لفوكيه

لأن يهرب ويلجأ بلا شك إلى حصنه فى جزيرة « بل آيل » وربما يطلب النجدة من الخارج أو على الأقل يثير مقاطعة بريتانى وبذلك لاتنجح الخطة المرسومة القائمة على الحرص والكتمان .

هدأ لويس الرابع عشر ، وتظاهر بالبشاشة والسرور أمام مضيفه وانتهت الوليمة فاستعد الموكب الملكى ، الذى انضم إليه فوكيه بالرغم من أنه أصيب بحمى ، للمسير متجهاً إلى نانت .

وفى قصر هذه المدينة استقبل الملك استقبالا حارا حماسيا ، وتجلى فيه للمرة الثانية سخاء وبذخ فوكيه ، فقد أحضر من أملاكه فى « بيل آيل » قرويات جميلات رقصن أمام الملكتين رقصات قروية وهن يملابسهن التقليدية .

وفى خلال ذلك المرح ظهر الملك أكثر وجوما عما كان فى قصر فو ، واعتقد رجال الحاشية أنه لا بد قد استاء من تصرفات « كولبير » وسرت الإشاعات بأن هذا الأخير سيقبض عليه بلا شك .

وفى صباح اليوم التالى عقد مجلس خاص ، وبعد أن فضت الجلسة غادر فوكيه القصر ليذهب إلى الكنيسة ، وما كاد يجتاز الباب حتى لقى أمامه بعض الفرسان يدل مظهرهم على أنهم ينتظرون شخصاً معيناً ، فابتسم اعتقادا منه أنهم يرتقبون خروج كولبير للقبض عليه ولكنهم عندما شاهدوه تقدم منه قائدهم دارتنيبان وهو يمسك فى يده ورقة ممهورة بخاتم الملك وقال له : « باسم الملك ألقى القبض عليك » اختفت الابتسامة ، واقتيد فوكيه إلى « أنجيه » حيث سجن فى

قلعتها ، وهكذا بين غمضة عين وانتباهتها انهارت قوته التى كان يخشاها الملك ويحسب لها ألف حساب . ولم يتحرك أحد للدفاع عنه لا فى بريتانى ولا فى « بيل آيل » ، وبدأت محاكمته التى دامت ثلاث سنوات ، وقضى على أغنى الأغنياء بالسجن مدى الحياة فى قلعة « بينيرول » .

وفى اليوم التالى لاعتقال فوكيه ، منح كولبير لقب وزير ، وأخذ معظم امتيازات وسلطات سجين « أنجيه » ، ولكن لم يعد يوجد وزير للمالية فقد قرر لويس الرابع عشر أن يحتفظ لنفسه بالإدارة الفعلية لمالية الدولة .